مقدمة المترجم

هذا هو الكتاب الثالث لمؤلفه جارى آر. بَنْت، أستاذ مساعد الدراسات الإسلامية بقسم اللاهوت والدراسات الدينية والإسلامية بجامعة ويلز بالمملكة المتحدة. يواصل بَنْت بحثه الدءوب حول أثر الإنترنت على الإسلام والمسلمين فى عالم اليوم، والتحولات التى طرأت على تصور المسلمين وغير المسلمين للإسلام داخل ما أسماها "البيئات الإسلامية السيبرية – مثل مواقع شبكات التواصل الاجتماعى والمدونات وغيرها – وخارجها فى العالم الحقيقى.

اختار المؤلف عنوانًا مبدعًا لكتابه؛ حيث نَحَتَ كلمة جديدة فى اللغة الإنجليزية وهى iMuslims مستعيراً حرف i الزئبقى الذى صار شائع الاستخدام فى كلمات مثل iTunes وiPhone إلخ للدلالة على الإنترنت أو التفاعلية. وللتعبير عن هذا المعنى، رأيت أن الترجمة الأصوب للعنوان: هى "المسلمون الافتراضيون"، على أساس أن تعبير المسلم الافتراضى أشمل من تعبير مسلم الإنترنت وهو ما يشير إليه الكتاب فى مواضع كثيرة، إذ إن هذه الدراسة تركز أيضًا على مستخدمى الهواتف المحمولة مثل البلاكبيرى وألعاب الكمبيوتر ومشاهدى كليبات الفيديو، وهذا بالطبع يتجاوز مستخدمى المحتوى المتاح على الويب.

يقدم المؤلف محاولة لتعريف "المسلم الافتراضى" فى خاتمة الكتاب، ورغم ما تميز به هذا التعريف من أصالة، فقد جاء معبِّرا عن صورة نمطية إلى حد كبير عن

علاقة المسلمين بالإنترنت وهو السؤال الذى حاول بَثْت الإجابة عنه فى معرض الكتاب كله. ربما كان التعريف الأكثر صدقًا في هذه الحالة هو "الإسلاميون الافتراضيون" الذين وصفهم المؤلف بأنهم يدخلون على الإنترنت بغرض البحث عن فتوى دينية، أو تصفح المدونات ذات الطابع "الإسلامى"، أو تحميل مواد إسلامية على هواتفهم المحمولة، بل من يشاركون بشكل إيجابى فى ترجمة المواد التى قد تكون ذات طابع نضالى أو جهادى إسلامى وتوزيعها! إلا أن المؤلف لا يغفل أن هناك فرقًا قد يكون كبيراً بين المسلمين والإسلاميين فيما يتعلق بعلاقتهم المعقدة بالإنترنت.

العنوان الفرعى للكتاب لا يقل إبداعًا عن عنوانه الرئيسى. يستعير المؤلف صورة مجازية وهى توصيل أسلاك الكهرباء أو الإنترنت وغيرها من التوصيلات "السلكية"

بالمنازل، مستخدماً صورة مركبة يلعب فيها بكلمة "بيت" بالإنجليزية التى تشير فى العنوان أيضاً إلى "دار" الإسلام. توضح هذه الصورة الفكرة الدقيقة والأصيلة التى أراد بَنْت التعبير عنها مجازياً من خلال العلاقة التناظرية بين "شبكة" الويب أو الإنترنت أو كليهما و"الشبكات" الإسلامية والمسلمة التقليدية (سواء ما قبل الإنترنت أو خارجه فى العالم الحقيقى). من هذا المنطلق، يبدأ المؤلف بمعطى أن علاقة الإنترنت بالمسلمين تتمثل أساساً فى "توصيل" أطراف أعضاء الشبكات المسلمة والإسلامية التقليدية ببعضهم؛ تلك الشبكات التى تتسم بالشتات والتفكك لأسباب خارج نطاق اهتمام الكتاب. هناك أمثلة كثيرة وردت عن تلك العلاقة، مثل التشابه بين بنية المصدر المفتوح فى المعرفة الإسلامية وعملية جمع الأحاديث التاريخية وتطور الفقه الإسلامى فى بدايات الإسلام. يحاول هذا الطرح، الذى لا يقل أصالة عن سابقيه، الإيحاء بأن علاقة التناظر البنيوى بين التصورات والممارسات الإسلامية التقليدية من الناحية التاريخية وشبكة الإنترنت كوسيط ينجح بشكل مطرد فى جمع شتات العالم الإسلامى رقمياً، وهو طرح ـــ رغم ما لا يَعْدَمُه من وجاهة وجِدَّة ـــ فإنه يسهل وقوعه فى فخ ما، قد يكون تعميمات مقولبة وصوراً جاهزة يبدأ بها مقدمات لم تتعرض للتمحيص والدرس ليصل إلى نتائج تلوى الحقائق ولا تصل إليها طواعية. علاقة المسلمين والإسلاميين كليهما بالإنترنت لا تختلف كثيراً عن علاقة باقى شعوب المعمورة بها؛ فهو مُنْتَج "غربى" بالأساس، لكنه اليوم بلا هوية أو عرقية محددة، بل ولا ينبغى أن يكون. لم يَقْبَل أو يُقْبِل المسلمون على الاستفادة من وسيط الإنترنت وغيره من وسائط التكنولوجيا إلا لأسباب عملية بل وبرجماتية أحياناً، أكثر من كون الإنترنت كـ"شبكة" متوافقاً مع بنية الشبكات الإسلامية التقليدية فى صدر الإسلام!

القضية الأولى التى أفرد لها المؤلف الفصل الأول من الكتاب هى "تحديد موقع الإسلام فى الفضاء السيبرى"، حيث عقد موازنة بين المواقع "الإسلامية" أو

المخصصة للمسلمين والوجود الإسلامى فى مواقع عالمية. مثلاً، توجد مواقع ذات طابع إسلامى مثل Islam Youtube أو روابط "إسلامية" فى مواقع مثل Amazon.com. تعكس هذه الموازنة الأشكال المختلفة للهوية الإسلامية على الإنترنت، بالإضافة إلى إبراز التقابل بين الخلفيات الدينية التقليدية وغير التقليدية فى الفضاء السيبرى، إلى جانب آراء غير المسلمين. وتفتح هذه الموازنة الأفق حول الأشكال المختلفة والمعقدة للعلاقة بين المتصفحين (أو جمهور مستخدمى الويب والإنترنت) ومقدمى المحتوى. الشكل الأوضح للعلاقة – بحسب الكتاب – يتمثل فى علاقة تبادلية بين متلقين سلبيين للمادة الدينية التى كانت وما زالت تُقدَّم للجمهور فى سياقات أكثر تقليدية وبين متلقين إيجابيين يساهمون بالتعليق على ما يتلقونه من محتوى على الويب ونقده، بل ولديهم القدرة فى بعض الأحيان على المشاركة فى صنعه بالكتابة أو الترجمة أو التحرير فى إسلام ذى توجه "ويكى"، وهو ما أدى فى نهاية المطاف إلى تثوير العلاقة المعقدة أساسًا بين مرجعيات دينية/ومؤلفى محتوى سلطويين وأتباع/متلقين سلبيين لا يملكون سوى هامش ضئيل للغاية من حرية الاختلاف أو النقد لأولئك المؤلفين أو المرجعيات.

المسألة الأخرى التى تناولها الفصل هى محاولة استكشاف أشكال العلاقة بين مفاهيم السلطة والممارسات الإسلامية فى الفضاء السيبرى وفى العالم الحقيقى، ومدى تطابقها أو تقاطعها وتأثير كل منها فى الآخر. بمعنى أدق، ما مدى انعكاس قوة مرجعية دينية ما فى العالم الحقيقى وما يستتبع ذلك من ممارسات على الويب/الإنترنت، وهل تؤثر تلك التمثيلات الافتراضية – بدورها – مرة أخرى فى مفاهيم العالم الحقيقى وممارساته؟ مثَّل المؤلف لهذه القضية بمثال ضرورة التواجد "على الإنترنت دائمًا" وحاول الربط بينها وبين ضرورة ممارسة المسلم الملتزم للإسلام طوال اليوم. رأيت أن المؤلف وقع فى مغالطة تتمثل فى ضرورة الربط بين استمرار التواجد على الإنترنت والخروج بنتيجة تفتئت على الحقيقة وهى أن المسلم

يدخل على الإنترنت باعتباره "فريضة" دينية! صحيح أن بعض الإسلاميين الذين تحركهم الأيديولوجيا يدخلون على الإنترنت من خلال نشاطهم الافتراضى، لكن من الصعب سحب هذه الحالة على كل المسلمين الذين يدخلون على الإنترنت لأسباب متعددة، قد يكون الدين أحد أسبابها.

طَرَحَ نفس الفصل مسألة العام والخاص فى الفضاء السيبرى الإسلامى وحدود التقاطعات بينهما فى الفضاء السيبرى مقابل العالم الحقيقى. تناول المؤلف قضيتين هما قضية النوع (الجندر) ورأى أن التشديد فى العالم الحقيقى على ضرورة الفصل بين الجنسين على أساس دينى له ما يناظره فى العالم الافتراضى أيضاً. القضية الأخرى هى العلاقة الملتبسة بين المسلمين وغير المسلمين فى المجال العام سواء فى العالم الحقيقى أو الافتراضى. فى هذه المسألة تحديداً، يرى المؤلف أن قضايا العام والخاص فى العالم الحقيقى يتردد صداها فى العالم الافتراضى، رغم الإمكانات الهائلة التى يوفرها وسيط الإنترنت بما يمثل فى أحيان كثيرة تحدياً صعباً للتقاليد الراسخة فى العالم الحقيقى.

مما يحسب للمؤلف عودته للربط بين الظاهرة الإسلامية على الإنترنت وبين ما بات يُعْرَف باسم "الاستعمار الإلكترونى". لكى نعمل على تقييم نقدى سليم للوجود الإسلامى على الإنترنت، فمن الخطأ محاولة عزله عن نظرية الاتصالات العالمية وكيفية عمل الإنترنت والقنوات الفضائية كأدوات اتصالاتية ذات قوانين عامة حاكمة تنسحب بالضرورة على القطاعات الأصغر مثل "القطاع" الإسلامى، إن جاز لنا استخدام هذا التعبير.

ربما يجوز لنا أن نحاول إعادة طرح تساؤل المؤلف حول مدى "إسلامية" تكنولوجيا الإنترنت من خلال السياق الأكبر لمجموع قنوات ووسائط الاتصالات الحديثة من ويب وإنترنت وقنوات فضائية وهواتف محمولة الخ. ربما أدت السهولة النسبية للمشاركة بالمحتوى "الإسلامى" – بالمعنى الأوسع للمفهوم – إلى وجود

الكثير من التصورات المفاهيمية شديدة التنوع حينًا والتعارض أحيانًا على الإنترنت؛ وهما ما أفضى إلى بروز هويات إسلامية متفردة تتجاوز الحدود التقليدية للمعرفة الإسلامية، بل وتحطم الصورة شديدة الرسوخ لإسلام "شرعي" واحد، حيث يتجاور إسلام حركة طالبان مع إسلام المثليين جنسيًا، مثلاً، ورغم ادعاء الأول في أغلب الأحيان أنه الإسلام الشرعي الوحيد، فإن وسيط الإنترنت ينفي هذا الزعم من خلال وجود كثير من أشكال "الإسلام" المختلفة والمتنوعة. من هذا، برز مفهوم "الأمة الافتراضية" لأوليفييه روى الذي يرى المؤلف أنه - لا يزال - صدى لتصورات قائمة في العالم الحقيقي عن "أمة إسلامية" موجودة في المخيلة الإسلامية وربما تحققت - للمفارقة - في العالم الافتراضي بشكل ربما يكون مُرْضِيًا للكثيرين. كما يفسح وسيط الويب والإنترنت المجال أمام ظهور أشكال جديدة من المرجعية الدينية، أو الأحرى تقديم تحدٍ حقيقي لأشكال المرجعية الدينية التقليدية، حيث علا صوت الأفراد ممن يُطْلَقُ عليهم في بعض الأوساط "الدعاة الجدد" داخل البيئات الإسلامية السيبرية.

يطرح المؤلف أيضًا بُعْدًا آخر وهو علاقة السلطة "السياسية" بالمتصفح للمحتوى الإسلامي على الإنترنت. مما يُذْكَر في هذا الصدد الملاحقة التي تحاول تتبع مؤلفي المواقع الإسلامية الجهادية أو ذات المحتوى الذي يمكن أن تعتبره بعض الحكومات "ضارًا" أو خطرًا على أمنها القومي، وبالتالي تتعامل بدرجات متفاوتة من الحزم مع المتصفحين وقطعًا مع مؤلفي المحتوى، إن تمكنت من تعقبهم وإلقاء القبض عليهم بتهمة الإضرار بالأمن العام ونشر مواد تهدد أمن الأفراد في المجال العام.

يعرض الفصل الثاني من الكتاب لعامل آخر وهو "الفجوة الرقمية" وعلاقتها بالبيئات الإسلامية السيبرية، ويستطرد في سرد العوامل الاقتصادية والسياسية والاجتماعية والمادية والثقافية وراء "التركيبة الديموغرافية" لمستخدمي الإنترنت المسلمين/الإسلاميين في العالم الإسلامي، إن جاز التعبير. النتيجة التي توصل

إليها المؤلف هى أنه من الخطأ المجوج إطلاق التعميمات بشأن تمثيل المسلمين الافتراضيين لـ"كل" المسلمين. هناك عوامل كثيرة اقتصادية واجتماعية وثقافية تحول دون حصول جميع المسلمين على إمكانية الدخول على الإنترنت وبأن يصبحوا مسلمين افتراضيين. ثمة عامل آخر وهو التعليم حيث لم تظهر إمكانية الكتابة فى البدايات إلا باللغة الإنجليزية أو بالحروف اللاتينية، فيما تطور استخدام الحروف العربية أو ما تسمى بـ"اللغات الإسلامية" وظهور البرمجيات العربية مفتوحة المصدر الذى أدى بدوره إلى تعزيز محتوى الإنترنت باللغة العربية فى السياقات الإسلامية.

يطرح هذا الفصل مسألة "الرقابة" على المحتوى على الإنترنت فى السياقات الإسلامية. جاء الطرح مؤيداً فى المطلق لحرية الكلام ومستنكراً لمواقف بعض حكومات البلدان الإسلامية، مثل المملكة العربية السعودية وإيران وسوريا، التى تفرض قيوداً على تصفح بعض المواقع. الجلىّ هنا فى هذه النقطة – وفى غيرها من المواضع الأخرى – تحيز المؤلف الواضح؛ ففى الوقت الذى يؤيد فيه موقف بعض الحكومات الرقابى من المواقع الإسلامية الجهادية، والذى يصل إلى حد الملاحقة القانونية والعقاب بالسجن للمشاركين فى هذه المواقع، نجد أنه يستنكر إلى حد ما موقف نفس الحكومات من المواقع التى تحتوى على محتوى معاد للإسلام!

فى الفصل الثالث، يقارب بَنْت مفاهيم المقدس وممارساته داخل السياقات الإسلامية – سواء فى الفضاء السيبرى أو فى العالم الحقيقى – من منظور ظاهراتى وفقًا لمنهج الباحثة والمستشرقة الألمانية آن مارى شيمل. للأسف يبدأ الفصل بمغالطة تفتقر إلى الدقة تبرز، من جديد، صورة نمطية يرسمها المسلمين التقليديين الذين يتعلمون لغات الكتابة على الإنترنت مثل HTML وغيرها فى المؤسسات والمعاهد الدينية الرسمية فى الأزهر وقُمْ. كما يتناول ممارسة أركان

الإسلام الخمسة بداية بالنطق بالشهادتين مروراً بالصلاة والحج إلى الصيام والزكاة، حيث يعقد موازنة شائقة ومفيدة بين ممارسة تلك الفرائض الأساسية فى الإسلام فى العالم الحقيقى والممارسات الموازية فى الفضاء الافتراضى. العالمان الحقيقى والافتراضى - فيما يتصل بأركان الإسلام الخمسة الشهيرة - ليسا عالمَيْن متطابقيْن تمام التطابق؛ فالمسلم الافتراضى يدخل على الإنترنت إما لجمع المعلومات أو التزود بالاستشارة حول الأحكام الصحيحة للممارسة، أو لأداء الفريضة نفسها لتعذر القيام بها فى العالم الحقيقى مثل التبرع بالزكاة عن طريق مواقع معينة لتعذر التبرع بها عينيًا أو لسهولة الخيار الأول. يمثل الفضاء السيبرى أيضًا قناة لغير المسلمين للتعرف أكثر على الإسلام، بل والدخول فيه عن طريق نطق الشهادتين "أونلاين" أو أداء فريضة "الحج الافتراضى" التى تتوفر فى بعض الألعاب على الحواسب الشخصية مثل "سكَنْد لايف" Second Life وغيرها.

تناول الفصل أيضًا تمثل الأعياد والمناسبات الدينية وطقوس المرور على الإنترنت فى السياقات الإسلامية. الإضافة التى أسهم بها محتوى الإنترنت فيما يتعلق بالأعياد ما يمثله الفضاء السيبرى من أداة للربط بين أعضاء جماعة دينية معينة تعد أقلية فى السياق الإسلامى (الشيعة الإسماعيلية مثلاً) أو بالأقلية المسلمة بوجه عام فى السياقات الغربية، كما تمثل المادة التى تحتوى على الاحتفالات والأعياد (مثل الاحتفالات بعاشوراء الحسين بالنسبة للمسلمين الشيعة) جانبًا تعريفيًا وخاصًا بهوية هذه الطائفة من المسلمين. يرتبط بمفهوم "الهوية" التى تتمثل فى الفضاء السيبرى المحتوى الذى يبرز مكانة المدن المقدسة فى الإسلام مثل القدس ومكة والمدينة. بالنسبة لطقوس المرور، يلجأ الزوجان فى حالة استقبال مولود جديد إلى قواعد بيانات الكترونية لاختيار أسماء المولود (وهو أمر لا دخل لديانة الزوجين فيه كما قد يظهر من حجة المؤلف)، رصد المؤلف أيضا العلاقات بين الجنسين بداية من التواعد والزواج أو الجنس والطلاق عبر الإنترنت. السؤال

الذى لابد من طرحه هنا لابد من القول إن المسلمين الافتراضيين ليسوا استثناء فيما يتصل بالعلاقات بين الجنسين على الإنترنت وتعقيداتها، فليست هناك وصفة "إسلامية" للتواعد والحب على الإنترنت، وإن كان بعض الدعاة قد انبروا للتحذير من مغبة الوقوع فى مخاطر العلاقات بين الجنسين على الإنترنت، فهذا لا يعنى مطلقًا أن هذه النصائح والتعليمات تلقى الترحيب أو القبول الكامل من جميع المسلمين المستخدمين للإنترنت. أما بالنسبة للموت، فإنه يتمثل فى الفضاء السيبرى إما كدالٍ على الهوية الطائفية لأقلية مسلمة ما (خاصة فى السياقات الغربية) حيث تحرص بعض الدوائر الإسلامية على وضع سجل بالوفيات للجالية المسلمة التى تمثلها مثل الشيعة البهرة الداوودية خارج العالم الإسلامى.

يستعرض الفصل سريعًا تمثل مكانة الأشخاص المقدسين فى الإسلام بداية بشخص الرسول (ص) وصحابته وآل بيته وأوائل العلماء المسلمين فى البيئات الإسلامية السيبرية، ثم ينتقل بسرعة إلى مناقشة مطولة حول المرجعية الدينية الإسلامية وتنوعها فى الفضاء السيبرى. هنا نلاحظ علو صوت بعض الأصوات الدينية السلطوية مثل الشيخ يوسف القرضاوى بين المسلمين السنة وآية الله العظمى على السيستانى بين المسلمين الشيعة، هذا إلى جانب صعود متسارع وقوى التأثير باطراد لمن أطلق عليهم المؤلف الدعاة "الشعبويين" الذين يمثلهم الداعية المصرى عمرو خالد. من ناحية أخرى، لا تخلو المناقشة من تحيز حاول المؤلف تحييده بأسلوب يزعم العلمية والموضوعية، حينما استشهد بآراء رافضة لموقف الشيخ القرضاوى الرافض تمامًا للحرب الأمريكية ضد العراق فى ٢٠٠٣. يقودنا الجدل حول المرجعيات الدينية ومكانها ومكانتها على الإنترنت إلى الجدل المحتدم والدائر حول الفتاوى على الإنترنت. يبدو أن الطبيعة التعاونية والسهولة النسبية للكتابة والنشر على الإنترنت جعلت من السهولة بمكان على الكثيرين نشر فتاواهم فى هذا الوسيط، دون الاضطرار للمرور بالكثير من المراحل التى يمر بها

القائمون على الإفتاء عادةً فى العالم الحقيقى، وهو ما أدى بطبيعة الحال إلى تصدى المُفتين الرسميين للإفتاء الافتراضى، سواء فى العالم الحقيقى أو عن طريق مواقع مضادة على الإنترنت.

تبدو النظرة النمطية والمقولبة أحيانًا جلية فى القسم الذى أُطلق عليه "الواجبات الدينية الأخرى"، حيث تناول "مواقع الذبائح" التى تعرضُ لمعلومات عن الأضحية فى الأعياد، ومواقع الأكل الحلال مقابل الحرام مثل الخمور ولحم الخنزير. فى هذا القسم، يظهر المسلم الافتراضى بصورته النمطية التى قولبتها الميديا الغربية، فهو الشخص الذى يحرص بشدة على تناول الطعام "الحلال" وشراء منتجات "إسلامية"، سواء من مواقع إسلامية محددة أو من مواقع عالمية، وإذا اضطر لإيداع أمواله فى المصارف، فإنه لن يتعامل إلا من خلال المصارف الإسلامية التى تضمن أن تتماشى تعاملاتها مع مبادئ الشريعة الإسلامية. ويستكمل المؤلف الصورة التى رسمها للمسلم الافتراضى بتفاصيل الصورة القائمة أصلاً فى تناول الميديا الغربية للمسلمين "الغاضبين" من عالم معادٍ للإسلام، وتتجلى هذه الصورة فى أوضح أشكالها فى أزمة الرسوم الكاريكاتورية المسيئة للرسول (ص) وقبلها أزمة نشر رواية "آيات شيطانية" لسلمان رشدى، ورود الفعل التى تكاد تتطابق سواء فى العالم الحقيقى أو الفضاء الافتراضى.

الفصل الرابع هو بداية القسم الثانى من الكتاب، ويعرض لنماذج "عملية" لاستخدام المسلمين الافتراضيين للوسيط الإلكترونى لإعادة ربط أمة الإسلام رقميًا. ثمة تساؤل مهم حول مدى "إسلامية" المدونات التى يكتبها مسلمون ويحررونها. رغم اعتراف المؤلف باستحالة التعميم، فإنه حاول رسم صورة لملامح المدون المسلم/الإسلامى فى عالم المدونات الإسلامية. كما عرض لوجهة النظر الغربية، والأمريكية تحديدًا، حول التدوين كأداة لتعزيز الديمقراطية فى السياقات الإسلامية. تناول الفصل بالتفصيل نماذج لمدونات من جميع أنحاء العالم

الإسلامى، ومن المؤسف أن المناقشة لم تَخْلُ من مغالطات ممجوجة حول بعض المدونات. على سبيل المثال، عمد بَنْت إلى اختيار مجموعة من المدونات العراقية التى تؤيد جميعها الاحتلال الأمريكى للعراق، بل كان من بينها مدونة لجندى عربى أمريكى فى جيش الاحتلال ويعرض لوجهة نظره، بينما تجاهل تمامًا وجود أية مدونات للمقاومة العراقية أو على الأقل لأفراد مناهضين للغزو الأمريكى للعراق، وهى نسبة ليست بالهينة بين أفراد الشعب العراقى المستخدم للإنترنت. بنفس المنطق عرض المؤلف للتدوين الفلسطينى- الإسرائيلى المشترك دون الإشارة إلى أن هذا الصوت، إن كان موجودًا، فإنه لا يمثل نسبة كبيرة بين المدونين الفلسطينيين، وفى الوقت نفسه، تجاهل وجود أية مدونات مناهضة للاحتلال الإسرائيلى أو المدونات الخاصة بأعضاء فى حركة حماس وغيرها من فصائل المقاومة مثلاً. يتواصل التحيز الواضح فى بقعة أخرى من بقاع العالم الإسلامى ذات خلفية نزاع مسلح، أى فى أفغانستان، حيث عرض أيضًا للمدونات الأفغانية التى استعرض منها عددًا مؤيدًا للولايات المتحدة، رغم مخالفة هذا الطرح للواقع على الأرض وحتمية تواجد مدونات "إسلامية" أخرى معارضة تمامًا للوجود الأمريكى فى بلادهم. اختتم المؤلف الفصل باستعراض سريع لمدونات الأقليات، وهى من وجهة نظره، الأقليات المسلمة فى الغرب ومدونات المرأة والصوت المضاد للاحتلال الإسرائيلى!

من الملاحظات ذات الأهمية فى هذا السياق أن العينة التى اختارها المؤلف وبنى عليها نتائجه كانت غالبيتها باللغة الإنجليزية، متجاهلاً ربما الكم الأكبر من المدونات المكتوبة بلغات المشاركين القومية أو ما يطلق عليها "اللغات الإسلامية". لا ينبغى لهذا أن يؤدى بنا إلى القول بأن المدونات باللغة الإنجليزية تتخذ موقفًا بعينه والمدونات باللغات الأخرى تتخذ موقفًا مغايرًا، لكن عدم إدراج تلك المدونات بما يتناسب مع نسبتها الفعلية فى البلوجوسفير الإسلامى لابد وأن يؤدى إلى نتائج منقوصة ومغلوطة حول اتجاهات التدوين فى العالم الإسلامى.

يخصص الفصل الخامس لمناقشة مستفيضة للمواد الجهادية على الإنترنت، والتى تصب فى نهاية المطاف فى تعريف ما أُطْلِقَ عليه "المسلم الافتراضى". من النقاط المضيئة فى كتاب "مسلمون افتراضيون" الانتقال بالدراسة من أدراج المكاتب الأمنية أو على الأقل الدراسات الأكاديمية ذات التوجه الأمنى لمحاولة تسليط ضوء أكثر موضوعية على دراسة الشبكات الجهادية على الإنترنت. تناول بَنْت علاقة التشابه بين الجهاد الإلكترونى والتسويق الڤيروسى، الذى يعتمد على توصيل "الرسالة" بأقل التكاليف وبسرعة فائقة وسط أكبر مجموعة من "المستهدفين". جاء التركيز – بطبيعة الحال – على جهاد تنظيم القاعدة على الإنترنت، وتأثير المرجعيات الدينية التقليدية أو من أُطلِق عليهم "المفكرون الجهاديون" بداية بابن تيمية مروراً بسيد قطب وعبد الله عزام. يرجعنا هذا الطرح إلى انتقال تأثير هؤلاء المفكرين أو المرجعيات من العالم الحقيقى إلى الفضاء السيبرى وبطبيعة الحال التأثير (أو أحياناً "التجنيد" أو "التعبئة") للجهاديين المحتملين على أرض المعارك الحقيقية (كما فى أرض المعركة الإلكترونية أيضاً).

من خلال الانشغال الذى يهيمن على المؤلف بشأن تحديد "ملامح" هؤلاء الجهاديين الإلكترونيين (وهم من أهم أنواع المسلمين الافتراضيين بحسب المؤلف)، خَلُصَ إلى أن تنميط أبطال الإنترنت الجهاديين أمر غير ممكن، فهم فى الأغلب ينتمون إلى الطبقات الجامعية المتعلمة، واقتصادياً إلى الطبقات الوسطى، وينحصرون فى الفئة العمرية من ٢٠ إلى ٤٠ عامًا. وهذا وإن كان يبدو أنه تحديد لملامح هؤلاء الجهاديين، لكنه لا يفيد كثيراً من الناحية الأكاديمية. ربما كان من بين إسهام المؤلف الإشارة إلى بعض "أبطال جهاد الإنترنت" المعروفين ومحاولة استكشاف أية ملامح مشتركة كما هو الحال بالنسبة لجهاديين إلكترونيين مثل شخصية "إرهابى٠٠٧" و"زبيدة ١٤١٧" و"لويس عطية الله" و"عبد العزيز المقرن"، ومقارنتها بواجهات جهاديين أو إرهابيين فى العالم الحقيقى مثل أبى حمزة وعمر

بكرى محمد. هناك إشارات متكررة أيضًا حول استخدام الإنترنت كوسيلة "لاستمرار" الرسالة الجهادية خاصة بعض تعرض الكثير من مؤلفى المواقع الجهادية للقتل أو السجن على أيد القوات الإمريكية فى حربها على الإرهاب. أننا نرى أن ثمة مغالطة أيضًا فى هذا الطرح لأن الجهات المضادة للجهاديين - سواء فى الولايات المتحدة أو البلدان الإسلامية المشاركة فى الحرب على الإرهاب - تفرض قيودًا صارمة على المواقع الجهادية التى ينشئها الجهاديون العسكريون، وبل تعمل على طمسها؛ فهى ليست حربًا من جهة واحدة، فالجهاديون من ناحيتهم يعملون على تعطيل المواقع المعادية لهم، وتقوم الجهات الحكومية فى بعض البلدان الإسلامية أو فى الولايات المتحدة والاتحاد الأوروبى بحجب أو طمس المواقع الجهادية التى ترى فى وجودها وانتشارها ما يهدد الأمن القومى لتلك البلدان. النقطة الأخرى التى تحسب للمؤلف هى الموازنة بين تراتبية العلاقة بين كبار المنظرين الجهاديين فى العالم الحقيقى ونظيرتها فى العالم الافتراضى، فشخصيات مثل أبى مصعب الزرقاوى وسيد قطب وأبى الأعلى المودودى لها حضورها الدائم فى الفضاء السيبرى بنفس القدر الذى تتمتع به فى العالم الحقيقى بين الجهاديين والإسلاميين الراديكاليين على الأرض.

من غير الممكن أيضًا تكوين نظرة نمطية جامعة حول قراء المواقع الجهادية. نجد المؤلف لا يُغفل ذكر تلك المواقع الجهادية التى أسستها أجهزة الاستخبارات المختلفة فى العالم كـ"مصيدة" للقراء أو من يحتمل تأثرهم بتلك المواد الجهادية على الإنترنت. غير أن ما يمكن إخضاعه للدراسة المفيدة هو إمكانية التجنيد عبر الإنترنت والقابلية للتأثر بالمحتوى الجهادى وأسبابه المختلفة. فى هذا السياق، عَرَضَ الفصل لاستخدام تنظيمات مسلحة مثل القاعدة وغيرها للإنترنت كسلاح لوجستى للتعريف بقضيتها، بل وتجنيد أفراد متعاطفين معها على الأقل، بالتقابل مع قضية "أعدائها" وخاصة الولايات المتحدة الأمريكية وتلك البلدان المشاركة فيما يسمى بالحرب العالمية على الإرهاب.

ليست التنظيمات الجهادية القتالية التنظيمات الوحيدة التى ترتبط بالإنترنت، بل هناك أيضًا منظمات إسلامية أخرى ترتبط به مثل حزب الله وحماس (والتى يرى المؤلف، رغم ما فى هذا من تحامل، أنها لا تختلف كثيرا عن تنظيم القاعدة العسكرى)!! تلك التنظيمات الجهادية العسكرية لا تُواجَه بمواقع إنترنت مضادة فى حربها الإلكترونية معها من الولايات المتحدة أو الاتحاد الأوروبى فحسب، بل أيضًا من جهات حكومية فى بلدان إسلامية ملتزمة ببرنامج الحرب على الإرهاب، ومنها المملكة العربية السعودية، التى دخلت فى أعقاب أحداث ١١ سبتمبر فى حوار حكومى- جهادى على شبكة الإنترنت، ولابد أن بلداناً أخرى نَحَتْ منحى مشابهًا فى هذا الصدد.

المقارنة التى عُقِدَت بين المواقع الجهادية ومواقع البورنو، رغم أنها جديدة من نوعها تظل فى النهاية وجهًا آخر من وجوه تحيز المؤلف غير المقبول فى سياق الدراسات الأكاديمية؛ فالمقارنة توحى بلا أخلاقية الجهاديين من حيث التشابه بين مواقع البورنو والجهاد فى كونها أنشطة "سرية" و"غير أخلاقية"، لدرجة الادعاء باختزال الجهاديين العسكريين لمعلومات سرية داخل صور وفيديوهات فى مواقع إباحية معينة! علاوة على ذلك، يربط المؤلف بينها وبين دورة رأسمال غير قانونية، بل ونجد الربط نفسه بين أفراد فى منظمات جهادية وتجار المخدرات، وهو ما يذكرنا بما تناقلته وسائل الإعلام المختلفة حول تمويل تنظيم القاعدة لعملياته ضد قوات التحالف فى أفغانستان من خلال تجارة الأفيون وغيره من المخدرات.

يلفت المؤلف الانتباه إلى أن المواد الجهادية لا تقتصر على النصوص التى يكتبها ويحررها إسلاميون راديكاليون فى مواقع محددة على الإنترنت، لكن من الملاحظ أن مقاطع الفيديو هى من الوسائل الأثيرة والفاعلة التى يستخدمها الجهاديون ولاسيما منذ الحرب السوفييتية ضد الشيشانيين. تتمثل مقاطع الفيديو

التى لاقت شهرة ذائعة فى سياق الحرب على الإرهاب فى تلك المقاطع الخاصة بحالات الإعدام التى يقوم بها الجهاديون الإرهابيون ضد من يعتبرونهم "الأعداء"، سواء كانوا رهائن محايدين طلبًا لفدية مالية أو تحقيقًا لمطالب سياسية، أو عناصر أهلية متهمة بالخيانة أو العمالة للقوات الأمريكية/ التحالف فى العراق أو أفغانستان، أو أفرادًا أسروا من الجيش الأمريكى/ التحالف، سواء كانوا من الجنود المقاتلين أو المنتمين لأسلحة ووحدات خدمية أخرى غير قتالية. الهدف الرئيسى لهذه المقاطع هو إحداث "أثر" عميق لدى "العدو" من وجهة النظر الجهادية العسكرية، وكذلك "التجنيد" للجهاديين المحتملين من بين الإسلاميين الراديكاليين المتعاطفين مع القضية الجهادية للقاعدة أو غيرها من التنظيمات الجهادية القتالية. من المواد المرئية الأخرى التى يستخدمها الراديكاليون الإسلاميون بصورة متكررة بعض أغانى الراب/الريجى ذات المحتوى الإسلامى الراديكالى، كتلك التى تدعو لمحاربة الصهاينة والأمريكيين، لعل أشهرها فيديو "الكفار الأنجاس"، وإن كان من الخطأ النظر إلى تلك الفيديوهات بأسلوب تبسيطى. فعلى سبيل المثال، يرد ذكر فرقة "برقع باند" الأفغانية فى سياق الفرق الموسيقية "الإسلامية" التى تتخذ طابعًا غربيًا شكليًا، وهو "شكل" فرق الروك، لكن فى حقيقة الأمر، فإن هذه الفرقة تحديدًا فرقة نسائية أفغانية اختارت ارتداء النقاب (أو "البرقع") احتجاجًا على نظرة طالبان المتشددة ضد المرأة فى أفغانستان بحسب المادة المنشورة حول هذه الفرقة على موقع موسوعة "ويكيبيديا" الإلكترونية.

هناك أيضًا المجلات والكتيبات السيبرية التى يقوم بالعمل على تأليف محتواها وتحريره ونشره فرق من الجهاديين المتخصصين كأداة لوجستية فى الجهاد العالمى، وتمثل هذه المجلات/الكتيبات مادة مفيدة للدراسة حيث تُنشر بها تفاصيل العمليات والنشاط العسكرى والخطط الاستراتيجية لتنظيمات مثل القاعدة وغيرها.

تُعنى بعض تلك المجلات/الكتيبات أيضًا بالقضايا المسلمة العامة مثل قضية فلسطين وكشمير والعراق وأفغانستان، إلى جانب تغطية القضايا الدينية الأساسية الأخرى على الإنترنت، والتى لم تغفل حتى القضايا النسائية التى تتولاها بتقديم النصح والمشورة، هذا إلى جانب تقديم تعليمات حول حيل التخفى وعدم الكشف عن الهوية على الإنترنت أو خطوات تصنيع القنابل والمتفجرات، الخ.

يُختتم هذا الفصل بتغطية سريعة للمحاكمات التى أقيمت على خلفية نشر مواد جهادية على الإنترنت، وتوضع أيضًا فى سياق الدفاع وحشد الرأى العام ضد القضية الجهادية. كما يذكر التشريعات التى تجرِّم المحتوى الجهادى مثل القانون الأمريكى لمنع التطرف العنيف والإرهاب الداخلى لعام ٢٠٠٧، وأورد أمثلة تناولتها وسائل الإعلام حول إدانة بعض الأفراد بشأن نشر أى محتوى يمكن وصفه بأنه جهادى، ولعل أشهر هذه الحالات قضية الفتاة المسلمة ساميا المقيمة فى لندن والتى عرفت فى وسائل الإعلام باسم "شاعرة الإرهاب".

ويُخصص الفصل السادس والأخير من "مسلمون افتراضيون" لمناقشة مستفيضة إلى حد ما عن ساحات القتال الرقمية فى العراق وفلسطين. اختيار العراق وفلسطين دالٌ فى حد ذاته، وغير منقطع الصلة بنفس الخط – لكن بصورة غير مباشرة – الذى برز فى مناقشة المدونات فى العالم الإسلامى فى الأصوات الإسلامية/الجهادية الموجودة فى الفضاء السيبرى حيث اختزل المؤلف مناهضة الاحتلال الأمريكى للعراق/ أفغانستان، والاحتلال الإسرائيلى لفلسطين. يركز المؤلف فى هذا الفصل مرة أخرى على مقاطع الفيديو الجهادية التى تصوِّر إعدام الرهائن فى ظل الحرب الأمريكية داخل العراق، مختزلاً بشكل مخلٍ الرؤية للمشهد السياسى العراقى المعقد إلى "متمردين" جهاديين عراقيين أو مسلمين بوجه عام ضد قوات أمريكية (غير مسلمة)، وبذلك يفرِّغ المقاومة العراقية من مضمونها

ويضفى عليها صبغة إسلامية جهادية قتالية بما يعتبر نظرة تبسيطية لا تخلو من التحيز، بل ومخالفة فى كثير من تفاصيلها للواقع على الأرض. من جهة أخرى، تجاهل المؤلف تماماً إن كانت مقاطع الفيديو التى تصوِّر عمليات الإعدام "الوحشية" التى تنفذ ضد الرهائن بمثابة رد فعل انتقامى ضد عمليات الإعدام والقتل التى قامت بها شركة "بلاك ووتر" الأمريكية وغيرها فى حق المواطنين العراقيين والجهاديين الإسلاميين وغيرهم، أى أن تلك العمليات – التى كان يدخل فيها عنصر "التحرير" بحسب المؤلف لتحقيق "الأثر" المطلوب – لم تكن ببساطة مدفوعة بدافع دينى بقدر ما كانت ذات طبيعة ثأرية إلى حد كبير. يختتم المؤلف القسم الأول من الفصل باستعراض عدد مما أسماه الأصوات الإسلامية الجهادية الأخرى فى العراق، وأغلبها من الأصوات الشيعية ثم الكردية، مثل جيش المهدى بقيادة مقتدى الصدر (١٩٧٣-)، والحائرى وعائلة الخوئى وعشيرة الشيرازى، هذا إلى جانب الحزب الإسلامى العراقى (وهو ممثل لأهل السنة والجماعة فى العراق) والجماعة الإسلامية الكردستانية (وهى جماعة إسلامية كردية تنتهج نهج أهل السنة والجماعة).

فى القسم الثانى من الفصل، يستعرض جارى بَنْت ساحات القتال الرقمية الفلسطينية، ويستدرك هنا بأن للقضية الفلسطينية وجهين على الإنترنت هما الوجه السياسى مقابل الوجه العسكرى. كما يعرض لمواقع منظمة إسلامية فلسطينية هى منظمة حماس وواجهاتها فى الفضاء السيبرى، وأهمها تلك المواقع "الاستشهادية" التابعة لحركة حماس. لا تُغفِل المواقع الجهادية للحركات الإسلامية الجهادية الفلسطينية الأخرى مثل كتائب شهداء الأقصى، والجهاد الإسلامى، والقاعدة فى فلسطين، هذا إلى جانب مواقع أقل "جهادية" مثل الكتلة الإسلامية ـــ فلسطين، وفلسطين جالیرى والمنتدى الفلسطينى، وموقع "صابرون"، وموقع "دنيا الوطن".

لخَّص المؤلف فى خاتمة الكتاب طروحاته التى يذهب فيها إلى أن المزج بين الإسلام والإنترنت نتج عنه تحولات فارقة بالنسبة لعنصرى المعادلة: الإسلام والإنترنت. بالطبع دخول المسلمين باختلاف مذاهبهم وأطيافهم وتوجهاتهم العقائدية والأيديولوجية على الإنترنت أدى إلى تمثيل الكثير من الإبداعات الخاصة بالمسلمين/الإسلاميين، بداية بالمواد التى تشرح العقيدة والعبادات الإسلامية للمسلمين وغير المسلمين مروراً بالمدونات المعبرة بشكل أو بآخر عن أصحابها وتوجهاتهم الشخصية بقدر تعبيرها عن الروح "الإسلامى" العام الذى جاءت تدوينات هؤلاء متفقة أو مختلفة معه فى أقل تفاصيله أو أغلبها، وانتهاءً بالمواد الجهادية القتالية التى تعبر عن الفصيل الأكثر تشدداً وراديكالية بين المسلمين. الشق الآخر من المعادلة يتمثل فى "الإسلام"، وهو ربما الأمر الأكثر أهمية، حيث لعب الإنترنت دوراً محورياً فى تغير النماذج التقليدية للأمة المسلمة، حيث تحولت أمة الإسلام عن طريق الإنترنت وغيره من التكنولوجيات فى مجال الاتصالات إلى أمة ذات روابط جديدة، وهو ما عبَّر عنه العنوان الفرعى للكتاب بصورة مجازية. ببساطة، لقد عمل الإنترنت والويب وهواتف البلاكبيرى والقنوات الفضائية ذات الخواص التفاعلية على إعادة ربط شتات الأمة الإسلامية رقمياً.

وأخيراً، فمن المهم الاعتراف بقيمة هذه الدراسة – رغم ما شابها من بعض التحيز الذى طفا على السطح هنا وهناك – فى تسليط الضوء على الظاهرة التى يُطلق عليها أحيانا «إسلام الإنترنت» أو «الإسلام الرقمى». قام المؤلف بجهد لافت لبحثها من منظور أكاديمى وميدانى يتميز بالموضوعية إلى حد كبير. لنا هنا أن نقارنها بالدراسات الغثة ذات الصبغة الأمنية التى تملأ أرففاً وتفيض بها أدراج ضباط الاستخبارات الأمريكية والغربية والعربية عن «مسلمى الإنترنت» و«المجاهدين الإلكترونيين» والواجهات الافتراضية للأفراد، وللمنظمات المسلمة

والإسلامية المختلفة، ومعها التنظيمات «الجهادية» و«الإرهابية» مثل تنظيم القاعدة وغيره. وتأتى الترجمة لهذا الكتاب لتسد فراغا هائلا فى المكتبة العربية فى هذا النوع الجاد والممتع من الدراسات التى تتناول العلاقة بين الإسلام والإنترنت من جهة، وتعاطى المسلمين بكافة توجهاتهم مع هذه العلاقة من جهة أخرى.

علاء الدين محمود

٢٠١١/٤/١

مقدمة المؤلف

المسلمون الافتراضيون والبيئات الإسلامية السيبرية

للإنترنت تأثير معاصر عميق على كيفية تصور المسلمين للإسلام وكيفية تطور المجتمعات والشبكات الإسلامية وتحولها فى القرن الحادى والعشرين. وفيما تبدو هذه الواجهات الإلكترونية جديدة ومبتكرة من حيث تطبيق الميديا، فإن للكثير من مضمونها جنوراً فى المفاهيم الإسلامية الكلاسيكية. وتتصل هذه المفاهيم بالشبكات الإسلامية التقليدية مع وجود أصداء تاريخية قد ترجع إلى زمن النبى محمد (ص). يستكشف كتاب "مسلمون افتراضيون" كيف لعبت هذه التحولات والتأثيرات فى مختلف البيئات الإسلامية السيبرية، وكيف تستجيب للتحولات فى مجال التكنولوجيا والمجتمع.

يشير استخدامى لمصطلح "البيئة الإسلامية السيبرية" العام إلى وجود التنوع بين شتى المناطق فى الفضاء السيبرى وداخلها، والتى تمثل مختلف التصورات الإسلامية عن العالم داخل دار الإسلام، وتقدم كلها نقطة مرجعية للهوية الإسلامية مع تصورٍ ما للإسلام. يتبع ترميز مصدر هذه البيئات بروتوكولات هوية (IP) محددة مع نقاط مرجعية إسلامية معينة، من بينها المعتقدات الأساسية المشتركة بين غالبية المسلمين. يتم تنقية الترميز أحياناً وتطويعه فى بعض الحالات لتصميم مظاهر أوجه الفهم الإسلامية التى تتكيف مع الشبكات والسياقات والتواريخ والقضايا المعاصرة. يشمل التنوع الإسلامى العديد من المجالات، بدءاً من عناصر فى عناوين الصحف الرئيسية إلى تلك الموجودة خارج نطاق الميديا. لا تتمثل كل جوانب الإسلام تماماً على الإنترنت، ولا سيما تلك الجوانب النابعة من السياقات

الدينية الثقافية الإسلامية ذات المستويات المنخفضة للاتصال بشبكة الإنترنت، فضلاً عن العناصر الاستبطانية الورعة السلبية.

تطورت أشكال محددة من إسلام الإنترنت أو الإسلام الرقمي، الذى يختلف عن الإسلام غير المتصل بالإنترنت أو الإسلام التناظرى. فقد يحدث أن يكون ثمة مكان للتعليم الدينى فى سياق افتراضى فقط. وربما يحدث أن تتجمع أيضًا شبكة أو جماعة على الإنترنت فقط، ولا يكون لاسمها ما يناظره فى العالم الحقيقى. هذه ليست مجرد ظاهرة مرتبطة بما يُعرف بالفصائل العسكرية الجهادية. لكنها ظاهرة موجودة فى مجالات أخرى من المعتقد، مثل سمات بعض عناصر المذهب الشيعى حيث يجب اتباع السرية أو اللجوء إلى التظاهر (التقية) تحقيقًا للسلامة الشخصية – وتلك ممارسات ذات تاريخ موغل فى القدم.

استلزم استخدام الإنترنت، وخاصة شبكة الويب العالمية، باسم الإسلام إعادة النظر فى الشبكات الإسلامية وإعادة تشكيل منظوماتها. وبينما ينطبق هذا الأمر على عناصر من أنماط ومفاهيم الشبكات التاريخية، هناك أيضًا مسائل جديدة تحتاج إلى نقاش. برزت المعرفة المبتكرة وتنظيم الدعوة حيث شكَّلا تحديًا لأنماط السلطة التقليدية "من أعلى إلى أسفل". كما غلَّف تنظيم المعرفة الأفقى التعاونى، الذى يعتمد على شبكات مكونة من أنداد، مجالات من الفضاء السيبرى الإسلامى. يُمْنَح قسم كبير من المحتوى بالمجان أيضًا، كما يُدْعَى المستخدمون لإبداء تعليقاتهم وتصويب المعلومات، وتقديم مساهماتهم فى بعض المجالات. قد يأتى ما يُدْخِله المستخدم ردًا على سؤال أو إحالة لمرجع ما أو تعليقاً على موضوع معين.

يمكن وصف هذا بأنه إسلام "ويكى التوجه" فيما يتعلق بأشكال التفاعل وتبادل المعرفة والتطور التى تحدث. تصف ويكيبيديا الاسم "ويكى" بأنه "موقع تعاونى على شبكة الإنترنت يمكن لأى شخص يستطيع الدخول إليه القيام بتعديلات فيه بشكل مباشر". ويمكن سحب هذا العنصر التعاونى على المجالات الأخرى. وصف دون تابسكوت وأنتونى. وليامز مثل هذا النهج فى مجال الاقتصاد بأنه "اقتصاد ويكى" Wikinomics، والذى يعتمد فى جزء منه على السوابق المرتبطة بتطور نظام التشغيل "لينكس". شارك مبتكر "لينكس"، لينوس تورفالدز، نسخته من نظام التشغيل يونكس مع مبرمجين آخرين فى ١٩٩١ بموجب ترخيص يضمن إتاحة إجراء كافة التغييرات للآخرين مجانًا. الآن بات "لينكس" منتجًا راسخًا باعتباره مصدرًا مفتوحًا بديلاً لمايكروسوفت ويندوز وغيرها من نظم تشغيل الكمبيوتر محتفظًا بجذوره كمُنْتَج تعاونى. يقدم مفهوم تقاسم الأنداد (أو "الندية")، الذى يعد لينكس نموذجًا قيمًا له، نظامًا يتيح نفسه لكثير من مجالات الحياة البشرية والتفاعلات الأخرى، بما فيها الشبكات والمجتمعات الإسلامية.

وفيما أنه لا يزال هناك تسلسل هرمى فى الفضاء السيبرى الإسلامى، فقد تعرضت النماذج التقليدية فى بعض الحالات لهزة شديدة أو أُجبِرت على التكيف

مع نموذج المصدر المفتوح للفهم والتأويلات الإسلامية. برزت أطر مفاهيمية جديدة بسرعة، استنادًا إلى نسق قيمى جوهرى مرتبط بالقرآن، وتسارعت من خلال عمليات الفضاء السيبرى التعاونية. دائمًا ما يجمع العنصر التعاونى "البيئات الإسلامية السيبرية"، لكن يتم إعادة تعريفه من خلال تطبيق الشبكات الاجتماعية وابتكارات الإنترنت الأخرى التى تصنف على أنها تنتمى إلى ما يسمى ويب ٢.٠.

على مر التاريخ أيضا، انطوى مفهوم تطور المعرفة الإسلامية على عنصر المصدر المفتوح. تطلب تطور الدراسة التى ترتكز على جمع الأقوال والأفعال المرتبطة بالنبى محمد (ص)، والمعروفة باسم "الحديث"، من العلماء ربط مراكز إنتاج المعرفة فى منظومة فى شكل شبكة من أجل جمع ونقل نُسَخِ الأحاديث التى حصلوا عليها. حدث هذا النشاط فى القرون التالية لوفاة محمد (ص) فى ٦٣٢ م وتطلب الكثير من رحلات السفر واسعة النطاق بين المجتمعات المسلمة فى شتى أنحاء العالم الإسلامى الوليد. خضعت هذه الأحاديث لتقييم نقدى وغربلة وتعزيز من قِبل هيئات من العلماء عبر شبكات المكان والزمان من أجل جمع المجموعات النهائية من الأحاديث. ويمثل هذا، فى نواحٍ كثيرة، نموذجًا واحدًا من نماذج العلم والتعاون الإسلامى مفتوح المصدر، رغم أنه يمكن القول إن ذلك الانفتاح كان خاضعًا لجوانب قصور وقيود فُرِضَت على مر الزمن.

أما السابقة الأخرى فكانت صقل الفقه الإسلامى على مر الزمن، مما استلزم عملية مماثلة من تكوين الشبكات والارتباطات. وفى غياب وسائل الاتصالات المعاصرة، فقد استغرقت هذه العمليات قرونًا. أما الآن، فيمكن للمسلمين الافتراضيين تداول المعلومات، والعمل عليها بسرعة. يعزز جزء من هذه العملية الأشكال السابقة من تبادل المعرفة فى السياقات الإسلامية، لكن هناك أيضًا عناصر تتطلب ما يمكن وصفه بعملية "ربط" دار الإسلام "بالإنترنت". وفى هذا شىء من المجاز ذو دلالات ميتافيزيقية وتقنية. بالمعنى الحرفى، لا يلزم أن تكون الواجهة البينية الفردية متصلة ماديًا بشبكة، نظرًا لوجود خيارات الشبكات

اللاسلكية والهواتف المحمولة التى تُشَغَّل عن طريق الإنترنت. ويشير "توصيل الأسلاك" أيضًا إلى معنى الربط بالإسلام، سواء بين الفرد أو الكمبيوتر. سيعرف أى شخص يتحدث عن تجربة شخصية مر بعملية إعادة توصيل الأسلاك فى منزله أو فى مكان عمله أنها قد تكون عملية مضطربة وفوضوية، بل وخطرة فى بعض الأحيان.

لتطبيق الإنترنت، فى بعض السياقات، تأثير تحولى شامل على كيفية ممارسة المسلمين للإسلام، وكيفية تمثيل أشكال الإسلام فى العالم الأوسع، وكيفية نظر المجتمعات المسلمة إلى أنفسها وأقرانها. فعلى أحد المستويات، قد يشمل هذا الأداء العملى للفرائض والشعائر الإسلامية، أو تفسير القرآن وتأويله. وعلى صعيد آخر، كشفت "البيئات الإسلامية السيبرية" أمام المسلمين تأثيرات راديكالية وجديدة خارج المجالات التقليدية للمعرفة والسلطة، مما تسبب فى تحولات فى المعايير النموذجية على المستوى الشعبى داخل المجتمعات.

سيتم التركيز على هذه النقاط فى كل فصل من فصول هذا الكتاب، مع أمثلة محددة مستقاة من سياقات متنوعة. سوف تجمع العناصر التى تتصل بهذه العملية التحويلية معًا فى الخاتمة، التى ستوضح طريقًا قد يواصل من خلاله الإسلام والمسلمون استخدام الإنترنت كوسيلة لفهم المعرفة الدينية وتفسيرها، ونقل أشكالها إلى مجموعة متنوعة من الجماهير. يأخذ الكتاب فى الاعتبار أن هذه العمليات ليست ثابتة لكنها قيد التطور، وأن استخدامها صار مضافًا طبيعيًا للأشكال التقليدية من الخطاب الإسلامى.

يؤكد كتاب "مسلمون افتراضيون" أن الاتصالات الحاسوبية يمكن أن يكون لها أثر جذرى على الإسلام والمسلمين فى عدد من السياقات الإسلامية، مع التسليم بأن هناك متغيرات مختلفة، وأن بعض السياقات لا تتأثر بتكنولوجيا المعلومات. وأيًا ما يكون الأثر فإنه سيكون قابلاً للقياس من الناحية العلمية، بينما يعنى قرب المسافة من حيث الوقت أنه قد لا يكون من الممكن تحديد أنماط أخرى حتى تمضى

فترة زمنية أكبر بين فترة الملاحظة وكتابة أى تحليل. فقد يكون الأثر خفيًا وغير واضح، وربما يكون قد تمازج مع عوامل أخرى عديدة.

يظهر هذا الكتاب فى سياق من الدراسات الدينية، الذى يعد فيها تخطيط الظواهر المعينة وتحديد المجال من عناصرها الأولية. وهذا يوفر مؤشرات لاتجاهات وتغيرات معينة مرتبطة بإعادة الربط بين شبكات الإسلام، استنادًا إلى الرصد المستمر لمجموعة من المواد على شبكة الإنترنت. يأمل الكتاب، رغم أصوله المعرفية، أن يكون ذا صلة بمن يدرسون فى المجالات الأكاديمية الأخرى والذين ربما يقاربون هذا الموضوع من وجهات نظر مغايرة.

أنا أدرك، من خلال مناقشة هذا البحث وتقديمه فى عددٍ من السياقات الأكاديمية فى المملكة المتحدة وغيرها، أن هناك توقعات ومناهج مختلفة تجاه الإسلام والمسلمين وشبكة الإنترنت. ليس فى نيتى، فى هذه المرحلة، تقديم معايرة علمية قابلة للقياس للقدرة التحولية أو أثر الاتصالات الحاسوبية على الإسلام والمسلمين أو فى "البيئات الإسلامية السيبرية". فتحديد الإجراءات يتطلب عمليات مسح وموارد دولية واسعة النطاق.

تتطلب أية دراسة لجماعات المستخدمين دراسة دولية ضخمة لفحص العلاقة بين مخرجات الإنترنت والسلوك خارج الإنترنت ضمن السياقات الإسلامية المختلفة. ومثل هذه الدراسة تتطلب عدة سنوات من الجهد المتواصل من فرق من الأكاديميين من شتى التخصصات. يتطلب هذا العمل، كما هو الحال بالنسبة لأى عمل ميدانى، قدرًا كبيرًا من الوصول إلى الأفراد شخصيًا – فى مجال موضوع قد لا يكون فيه المستجيبون والمشاركون بالضرورة على استعداد للكشف، أو قد لا يشعرون بالارتياح وهم يقدمون معلومات شخصية حساسة عن عادات تصفح الإنترنت واختيارات أسلوب الحياة الإسلامية. قد تكون هناك تضاربات بين "الأجوبة المتوقعة" والبيانات المعروضة. والمأمول أن يساعد كتاب "مسلمون افتراضيون" فى توجيه البحث فى هذا المجال فى المستقبل، ويكون بمثابة دليل

انعكاسى داخل العمليات المرتبطة بصياغة مناهج البحث ومقاربات الدراسات البينية فى هذا المجال.

يُبين كتاب "مسلمون افتراضيون" كيف اتخذت رقمنة دار الإسلام و"الربط بين شبكات" العديد من المناهج الموضوعية والمنهجية. تمثل هذه العملية واحدة من التغيرات التاريخية الأكثر أهمية فى الاتجاه نحو كيفية معالجة المعلومات عن الإسلام والمسلمين وربطها ونشرها. ومع زيادة الاتصال بشبكة الإنترنت بشكل مطرد ـــ من خلال مجموعة متنوعة من واجهات سياقات اجتماعية ثقافية ـــ اشتد الطلب على خطاب أكاديمى حول هذه التطورات.

من النقاط شديدة الأهمية هى ما إن كانت شبكة الإنترنت قد أضحت الأداة المثالية للتواصل بين شتى المجتمعات الإسلامية والأفراد. يقر هذا الكتاب بأن الكثير من المسلمين لا يزالون غير متأثرين بالإنترنت، على الأقل بشكل مباشر، مع الاعتراف بأنها قد غدت بالنسبة للآخرين إضافة حيوية للتعبير عن الذات والتدين. وينظر كتاب "مسلمون افتراضيون" أثناء مناقشة كيفية تجسيد الأفكار الإسلامية عن المقدس والهويات الدينية نفسها بطرق معقدة فى الفضاء السيبرى، فيما إن كانت تعكس بشكل أو بآخر متوالية أشكال الفهم الإسلامية الموجودة فى العالم غير الرقمى. ويتحقق هذا الكتاب من العناصر فى المجتمعات المسلمة التى ربما طرأ عليها تحولات من خلال هذا التفاعل السيبرى. كما يسلط الضوء على كيفية بروز بعض وجهات النظر عن طريق الويب أو تغيرها أو تعزيزها أو كليهما من خلال القيم التى تنتقل عن طريق الإنترنت.

يفسر كتاب "مسلمون افتراضيون" كيفية وقوع هذه التغييرات بأشكال مختلفة، من بينها تلك التى حدثت عن طريق مواقع الشبكات الاجتماعية والمدونات. أناقش فى هذا الكتاب كيفية تناول هذه المصادر وتفسيرها، وتتضمن مقارنة بين مختلف الأطر السياسية والدينية ومحتوياتها. اخترت التدوين لأنه منح حق الوصول إلى النشر مباشرة على الإنترنت والشبكات الاجتماعية لعدد كبير من القراء والكتاب.

وعادةً ما تكون الأدوات مفتوحة المصدر ومجانية بالنسبة للمستخدمين الذين لديهم حق الوصول، وترتبط بمجموعة من خيارات الشبكات الاجتماعية الأخرى. التدوين مجال طوَّر نفسه بسرعة من حيث التخصص في الموضوع وحقق فرصًا للتعبير عن رؤية للعالم تتجاوز، في كثير من الحالات، الأشكال التقليدية للتنظيم والرقابة. تحدى التدوين وسائل الإعلام التقليدية، ومع فتح أدوات اللغة للخطاب باللغة الفارسية والعربية وغيرها من اللغات "الإسلامية" الأخرى، أصبحت المدونات وسيطًا رئيسيًا لإبداء الرأي ضمن "البيئات الإسلامية السيبرية".

وقع الاختيار على الفضاء السيبرى الجهادى، بأشكاله متعددة الجوانب (ومن بينها المدونات)، لمناقشتها في كتاب "مسلمون افتراضيون" لأنه يمثل تحولاً من نوع مختلف. أثَّرت شبكة الإنترنت بشكل كبير في الحملات ذات التوجه الجهادى عن طريق بعض الشبكات كالقاعدة وأحدثت تغيراً كبيراً في كيفية تولد أشكال النضال والراديكالية الإسلامية. يوفر كتاب "مسلمون افتراضيون" إطاراً يمكن من خلاله تحليل مخرجات المنظمات الجهادية على الإنترنت. ويستند هذا الكتاب إلى أمثلة عملية مأخوذة من مجموعة متنوعة من المواقع، لا سيما تلك المرتبطة بالمعارك الجهادية الرقمية في العراق وفلسطين. ظلت الشبكات والمنظمات الجهادية تستخدم الإنترنت باعتباره أداة لوجستية ودعائية لسنوات عديدة، ولكن بعد ٩/١١، تركز الاهتمام والتكهنات التي أحاطت بهذه البرامج على وجودها على الإنترنت. وسمح التطبيق البارع للإنترنت، خاصة من حيث استخدام فضاء الويب المجاني، والتشفير، وأدوات إخفاء الهوية، لتنظيم القاعدة وغيرها بالتلاعب بمهارة في أجندات الصحافة والرأي العام في جميع أنحاء العالم من أجل تعزيز رؤيتهم للعالم، تلك الرؤية التي فهمها البعض من خلال الإنترنت على أنها تمثِّل الإسلام ككل. ويسعى هذا الكتاب لإثبات أنه ورغم أن الناتج الجهادى أحد الجوانب المهمة من التعبير لدى المسلمين، ويتطلب أكبر قدر ممكن من الاهتمام والتفاهم، فإنه ليس بأية حال من الأحوال الصورة الكاملة المتعلقة بالإسلام والفضاء السيبرى.

اختتم الكتاب بتحديد السبيل للمضى قدمًا فى التعبير عن أشكال الفهم المختلفة للإسلام على الإنترنت والتحولات فيها ووصف كيفية تشكيل الشبكات الإسلامية من خلال علاقاتها بالإنترنت.

مصطلح "مسلمون افتراضيون"، iMuslims الذى أطرحه هنا، مرادف للمسلمين السيبريين لكنه يركز على حرف "i" الزئبقى (فى اللغة الإنجليزية). ويمثل "i" فى المقام الأول الإنترنت بكافة أشكاله. وقد يشير حرف "i" بمعنى أوسع لتكنولوجيا المعلومات information technology والتفاعل interactivity، ويمكن أن يشير أيضًا إلى مصطلح "قابلية التشغيل المتبادل interoperability الذى يستدعى مجموعة متنوعة من البرامج التى تعمل معًا على نحو متوافق. وترتبط أيضًا بعدد من منتجات الكمبيوتر ذات الشعبية مثل آى بود أبل ipod، وآى ماك iMac، وآى فوتو iPhoto، وآى تيونز iTunes، وأى لايف iLife، وآى موڤى iMovie.

ينطبق مصطلح "مسلم" فى هذا الكتاب على أى شخص يُعَرِّف نفسه أو نفسها على أنه مؤمن أو مؤمنة بالإسلام. "المسلمون الافتراضيون" هم أتباع الإسلام الذين يعملون بقدرة ما فى "البيئات الإسلامية السيبرية"، أى فى المجموعة المعقدة من السياقات الرقمية التى يستخدمها المسلمون للتعبير عن الإسلام. السؤال المحورى فى هذا الكتاب هو كيف يستفيد "المسلمون الافتراضيون" من "البيئات الإسلامية السيبرية" فى السياقات المعاصرة؟ وللإجابة عن هذا السؤال، لا بد أن نفهم أيضًا كيف تتحول البيئات نفسها وتتطور استجابة للتغيرات فى التكنولوجيا ولتطوير أشكال جديدة من الشبكات المسلمة.